

لماذا ديك وجين سمينان

عادت صديقة لي إلى الولايات المتحدة مؤخراً بعد أن عاشت لعدة أعوام في هونغ كونغ مع زوجها وأربعة أولاد. سألتها في أحد الأيام ما كان الشيء الأبرز بالنسبة لها لدى العودة إلى المشهد الأميركي، متوقعة أن أسمع منها أفكارها حول التربية، الثقافة الشعبية، أو موضوع آخر جلي. بدلاً من ذلك أجابت على الفور وبنحو مفاجئ: "هذا سهل. والدان ملائمان، أطفال سمان".

والدان ملائمان، أطفال سمان. رغم أن بعض الناس يمكن أن يتضايقوا من تلك الصيغة المباشرة، فإنهم في الواقع يجب ألا ينزعجوا. فمعظم الأطباء يعتقدون أن سمنة الأحداث مشكلة صحية خطيرة جديدة، وصادف أن ملخص صديقتي مؤثر وذكي في آن. وقد عبّر أيضاً عن أمر لاحظته أنا أيضاً دون أن أفكر به

في الحقيقة. فحارتنا تعجُّ بالمدارس والطلاب من مختلف الفئات الاجتماعية؛ وهناك عدد من المدارس الخاصة والعامة، المختلطة وأحادية الجنس والتي تغطي جميع الأعمار، وهي ضمن مسافة سير على القدمين. بعد أن راقبت أطفال تلك المدارس لدزيتين من السنوات، وأيضاً مجيء وذهاب آبائهم وأمهاتهم، عرفت أن صديقتي قالت شيئاً صائباً تماماً: إن كثيراً من البالغين هم بوضوح أصغر في الحجم من آبائهم. وبين أولياء الأمور الأغنياء خاصة ليس من النادر مطلقاً رؤية بالغ في سن الأربعين أو الخمسين أو الستين من كلا الجنسين يسير إلى المدرسة أو يعود منها إلى جانب طفل أو مراهق سمين أو مفرط الوزن بشكل خطير. وحتى بين آباء آخرين - وخاصة المهاجرين، والذين هناك الكثير منهم في الحارة - ليس من غير العادي على الإطلاق رؤية أطفال هم أكبر وأعرض بكثير مما كانت عليه أمهاتهم وآبائهم في السن نفسه.

لم يكن هذا المنظر - الأطفال والمراهقون الذين هم بنحو معتبر أضخم من آبائهم وأمهاتهم البيولوجيين، سواء كانوا أم لم يكونوا "ملائمين" فعلاً - شائعاً في طفولة كثير من القراء الحاليين. إنه في الحقيقة جديد تماماً، ويتوافق مع أدبيات خبيرة مزدهرة ومهتمة، وهي ترد الأمر إلى المنزل، وتُظهر كم هي جديدة وكلية الحضور مشكلة سمنة الأحداث اليوم. وإنها لحقيقة مثيرة للفضول أنه في الوقت الذي يصبح فيه الراشدون الأميركيون أكثر لياقة وأكثر وعياً بالصحة - أو على الأقل يشعرون أنهم يجب أن يكونوا - نرى أن

الأطفال والمراهقين الأميركيين يصبحون أكثر سمنة وحباً للجلوس ولا يستمتعون بسنوات حياتهم الأكثر صحة.

نحن نعرف إلى حد كاف أسباب كل هذا: الطعام السريع، قلة التمارين، الوجبات الرخيصة، حصص المطعم الضخمة، وبقية العقيدة المسببة للكآبة التي ذُكرت في مقالات منشورة مؤخراً. وحتى هكذا، إن المظهر الوحيد لهذه الظاهرة الجديدة لسمنة الأطفال التي لم يندفع أحد كي يناقشها هو بنحو مثير للجدل الجزء الأكثر أهمية من الكل: ليس كيف يصبح الأطفال بدناء، وإنما بالأحرى لماذا.

كان الوالدان أو الأسرة الموسعة يتحكمون في الماضي بمعظم ما يأكله الأطفال ومتى يأكلون. وقد مورست هذه المسؤولية فعلياً في جميع الأمكنة في التاريخ البشري، من المناطق الاستوائية (السافانا) إلى مناطق الإسكيمو (الإجلو) إلى الراج وغيرها. مارسها الأغنياء والفقراء، وإلا لكان تاريخ الطبقات الاجتماعية الميسورة مليئاً بأطفال وبالغين مفرطي الحجم مثل الذين نراهم اليوم (كما لم يحدث بوضوح). إن "لماذا" التي تتطوي عليها مشكلة سمنة الأطفال يمكن أن تُصاغ كالتالي: في أي نوع من العالم الاجتماعي يتوقف البالغون عن أداء المهمة الجوهرية في ضبط عادات أكل الأطفال؟

الجواب هو أن عالمنا الاجتماعي الخاص أصبح واحداً لا يتواجد فيه الراشدون، وخاصة الوالدين، كي يقوموا بالتحكم في

المقام الأول. بتعبير آخر، هناك علاقة بين الأمهات والآباء الغائبين
 . وخاصة الأمهات، كما سنرى . والأطفال الذين يأكلون بشكل
 مفرط .

بالمقارنة مع مشكلات الإرهاب والحرب الخطيرة والمهلكة
 وغيرها . من أجل هذا الأمر، بالمقارنة مع بعض مشكلات الأحداث
 الأخرى الموصوفة في هذا الكتاب . لا تثير حقيقة أن كثيراً من
 الأطفال الأميركيين يحملون بضعة أرتال قلق أي شخص . أي، كان
 يمكن أن يبدو هذا بتلك الطريقة قبل 2003، العام الذي أجبرت
 فيه سلسلة من الدراسات الرائجة حول سممة الأطفال على إدخال
 مشكلة سممة الأطفال في مركز الوعي العام، ولقد تأكد تحول
 واضح في آذار 2004 حين أكد فريق آخر من الباحثين أن السممة
 يمكن أن تطيح بالتدخين كسبب رئيسي للموت القابل للمنع.⁽¹⁾

الإحصاءات سيئة بنحو درامي . اكتشفت دراسة رئيسة نُشرت
 في 2002 في مجلة جورنال أوف ذ أميركان ميديكال أسوسيايشن
 (مجلة الجمعية الطبية الأميركية) أن نسبة الأطفال الزائدي
 السممة بلغت ثلاثة أضعاف بين الستينيات وأواخر التسعينيات.⁽²⁾
 واكتشف تقرير نُشر في مجلة بدياتريكس (مجلة طب الأطفال) في
 2002 من قبل باحثين في مراكز مكافحة الأمراض أن كلف الإدخال

إلى المستشفى المرتبطة بسمنة الأطفال بلغت أيضاً ثلاثة أضعاف أثناء الفاصل الزمني نفسه.⁽³⁾ وقد أوضحت تقارير متخصصة عديدة أخرى ما سيعرفه أي شخص ذهب إلى المول مؤخراً: الأطفال الأميركيون هم بالفعل بدناء، وهم يزدادون سمناً مع مرور الوقت. شاهدوا انفجار الأحجام "الضخمة" في ملابس الأطفال. شاهدوا شعبية أشكال الهيب هوب بين مراهقي جميع السلالات. إنها كخيمة جسدية أكثر قرباً إلى البركا أو المومو (muumuu^(*)) من الثوب الغربي التقليدي.

ورغم أن حفنة من المعارضين اقترحوا شيئاً مخالفاً، فإن مشكلة سمنة الأطفال هي مزعجة بشكل فريد، كمسألة صحة عامة وكحقيقة اجتماعية في آن. إنه شيء أن نرى أطفالاً بدناء بلا قميص يُعرضون كعجائب السيرك في عرض ماري بوفيتش وأن نفكر بالمشكلة كنتاج تافه من القمامة التلفزيونية. لكن الأمر يختلف حين نقرأ قصصاً كتبها الأطباء عن معاناتهم الحقيقية: الحوادث المتنامية للمشاكل القلبية المبكرة والسرطانات المرتبطة بالبدانة في الأطفال الذين لم يمض على خروجهم من الطفولة سوى سنوات؛ التجارب، التي بعضها محفوف بالمخاطر، بالإضافة إلى الأدوية، والعمليات الجراحية من كافة الأنواع؛ ازدياد الداء السكري، الازدياد الذي بلغ خمسة أضعاف في حالات الاختناق أثناء النوم، وازدياد مرض المرارة ثلاث مرات، وكلها أثناء العقد الماضيين.

(*) فستان طويل وفضفاض ذو ألوان ورسوم زاهية.

وما هو مخيف أكثر من غيره هو الازدياد في النمط 2 من الداء السكري بين الأطفال والمراهقين، وهذا قاتل على المدى الطويل، ويمكن أن يجعل أعمارهم أقصر من الفترة التي يعيشها آباؤهم وأمهاتهم. ومهما يمكن أن يُقال عنها، إن مسائل الصحة العامة التي أثارها بدانة الأطفال ليست من اختراع الإعلام.

يشير أحد الشروح لمشكلة بدانة الطفل - والدعاوى القضائية تشق طريقها في المحاكم - إلى صناعة الطعام السريع. "الطعام الكبير"، كما يسميه النقاد، هو كذلك المتهم في كتاب صدر مؤخراً ألقاه جريج كريتسر وهو بعنوان أرض السمنة: كيف أصبح الأميركيون الأكثر سمنة في العالم.⁽⁴⁾ فبعض ما يزعمه النقاد صحيح، على سبيل المثال، الحصص هي بشكل معتبر أكبر مما كانت عليه منذ ثلاثين عاماً. ولكن صحيح أيضاً أن توفر المؤونة لا يؤدي إلى الرذيلة، بتعبير آخر إن مدمني الكحول لم يصبحوا هكذا بسبب ارتيادهم لمتاجر الكحول. لهذا السبب لا يبدو من المعقول افتراض أن تراخيص الطعام السريع وما شابه تستجيب للطلب بدلاً من خلقه. لا يتهدى الأميركيون مثل الزومبيز Zombies إلى المزود فقط لأن العقيد ساندرز يأمرهم بذلك. ربما كانت شركات الطعام السريع وغيرها منخرطة فحسب في العمل كالعادة، محاولة الإبقاء على الزبائن بدناء وسعداء. فحقيقة أن شركة مك دونالد قد خفضت حصصها من شرائح البطاطا المقلية بالدهن استجابة لمخاوف من السمنة توضح الكثير.

الشرح الثاني والأكثر شعبية لمشكلة سمنة الأطفال هو أن الأطفال يسمنون لأنهم مبرمجون وراثياً كي يكونوا بهذه الطريقة. ويبدو أن لهذا التفكير فضيلتين رئيسيتين: الأولى، تعكس ما نستطيع أن نراه الجميع وما وثقته الدراسات: فالأطفال البدناء يميلون إلى أن يكون لهم أمهات بدناء. الثانية، أنها لا تطلق أحكاماً. فبدانة الطفل مسألة غير مريحة ومربكة لكثير من الناس. إذا كان لا مناص من أن يصبح الأطفال بدناء، فهناك القليل بالنسبة لهم أو لآبائهم وأمهاتهم كي يندموا أو يعملوا عليه.

مع ذلك إن الحجة الوراثية، مثل حجة الطعام السريع، هي أيضاً محدودة بشكل جدي، هذه المرة بالحقيقة التاريخية. فالبرمجة الوراثية وحدها لا تستطيع شرح القفزة الكبيرة إلى البدانة والسمنة في العقدين أو العقود الثلاثة الأخيرة. لو كان الناس في الحقيقة "خاضعين لبرنامج عمل" كي يسمنوا، لتطورت مشكلة البدانة قبل أجيال، حالما توفر لهم الطعام الزائد. فمعظم الأميركيين (وآخرون حديثون) كانوا مزدهرين لوقت طويل جداً. كان بوسعهم أن يأكلوا كثيراً ويصبح وزنهم مساوياً لأوزان اليوم، منذ سنوات كثيرة، ولكنهم لسبب ما لم يفعلوا. وكما بينت كاتلين إم. مكتيج، المؤلفة البارزة لدراسة حديثة حول السمنة في حوليات الطب الداخلي: "إن الذين ولدوا في 1964 وأصبحوا بدناء فعلوا ذلك بشكل أسرع بـ 25٪ إلى 27٪ من أولئك الذين ولدوا في 1957".⁽⁵⁾ لا تستطيع الوراثة شرح حقائق كهذه.

فضلاً عن ذلك، إن كلاً من حجتى الطعام السريع والوراثة دُحضتا بهذه الحقيقة النقدية: الأفكار الخاطئة والشهرة غير المستحقة تفيد العكس، فمعظم البلدان الأخرى المتقدمة تشترك في مشكلة سمنة وبدانة، وفي الجزء الأكبر تختلف عنا في الدرجة وليس في النوع. أفادت صحيفة ذ غارديان أنه في إنكلترا في 2002 " بلغت نسب بدانة البالغين ثلاثة أضعاف وتضاعفت لدى الأطفال منذ 1982".⁽⁶⁾ وفي كندا، قالت صحيفة جلوب أند ميل: في 2002 "أكثر من ثلث الأطفال الكنديين بين الثانية والحادية عشرة هم مفرطو الوزن، ونصف ذلك العدد بدناء، بحسب معطيات إحصائية كندية".⁽⁷⁾ فضلاً عن ذلك، "تمتلك كندا الآن أطفالاً سماناً أكثر من البالغين البدناء". بالنسبة لأستراليا، اكتشفت دراسة تمت هناك في عام 2000 أن الأطفال من الجنسين من المرجح مرتين أن يُعرفوا كزائدي الوزن في 2000 كما في 1985.

ليس العالم الناطق بالإنكليزية هو وحده في هذا. فأوروبا القارية وأطفالها ينتفخون كالبوالين أيضاً. ففي إيطاليا، يفيد باحثون في بوليتينو إبيديميولوجيوكو ناشيونيل: "إن الأطفال النابوليين (نسبة إلى مدينة نابولي) هم أكثر تعرضاً لخطر السمنة من الأطفال في فرنسا، وهولندا، والولايات المتحدة، وأيضاً من أطفال يعيشون في ميلانو في شمال إيطاليا"، بينما في محافظة بينيفينتو، "كان انتشار الوزن الزائد والسمنة أكبر... مما هو في إنكلترا، اسكتلندا، والولايات المتحدة".⁽⁸⁾ وفي ألمانيا، بحسب باحثين

مجلة المجلة الدولية للسمنة، فإن "دراسة كبيرة حول جميع الأطفال الداخلين إلى المدارس في بافاريا في 1997 تُظهر نماذج من الوزن الزائد والسمنة قابلة للمقارنة مع معطيات أوروبية أخرى" (رغم أنها لا تزال "أدنى من المعطيات الأميركية والأسترالية")⁽⁹⁾. حتى فرنسا المُتَى عليها، شهدت، بحسب الباحثين الفرنسيين، انتشار سمنة الأطفال أكثر من الضعف في العقدين الأخيرين.⁽¹⁰⁾ فإذا كان الطعام السريع أو الوراثة المُتَهم الرئيسي وراء مشكلة السمنة، فإن الإحصاءات الدولية إذًا عبر الثقافات المتنوعة والحميات لن تبدو كثيراً مثل إحصاءاتنا.

ومن الواضح أن شيئاً ما آخر يجري في كل هذه الأمكنة، شيئاً ما يمكن أن يتعلق بمن يشرفُ على ما يدخل في فم الأطفال. في النهاية، إن الفاصل من 1980 إلى 1990، والذي حصل فيه التصاعد الذي بلغ ثلاثة أضعاف في المشكلات الصحية المتعلقة بالسمنة المذكورة سابقاً هو بالضبط الفاصل نفسه الذي شهد هذا التغيّر الاجتماعي الدرامي: بين 1980 و1985 "عبرت" نسبة الأمهات اللواتي لديهن أطفال تحت السادسة، وهن في قوة العمل، الخط السحري إلى أن أصبحت الأغلبية.⁽¹¹⁾ وبحلول 1990 ازداد ارتفاع النسبة: 58.2.

بحلول 2002 ازداد الارتفاع إلى 64.6%. بتعبير آخر، الأعوام التي يبدو أن مرض السمنة قد تسارع فيها هي الأعوام نفسها التي

أصبح فيها عدد الأمهات الداخلات إلى قوة العمل المعدّل الإحصائي.

وهذا تزامن مفاجئ وموح بشكل رفيع. مع ذلك، في جميع المجلدات والنشرات والمقالات المخصصة لمشكلة السمنة، كان هناك على ما يبدو محاولة أميركية واحدة جادة لفحص مباشر لمسألة سمنة الطفل. كانت هذه مقالاً نشرته في 2002 باتريسيا إم. أندرسون، كريستين إف. بتشر، وفيليب بي. ليفاين من المركز المشترك لبحث الفقر (الذي تموّلّه وزارة الصحة والخدمات البشرية).⁽¹²⁾ تستخدم دراستهما المعنونة "عمل الأمهات والأطفال الزائدو الوزن" معطيات من عشرة آلاف طفل يُشاركون في المسح القومي الطولاني للشباب (NLSY)، بين مصادر أخرى. وضع مؤلفوه نصب أعينهم هدف المساعدة على تحديد "إن كانت هناك صلة عرضية بين وظيفة الأم والوزن الزائد لدى الأطفال". وعلى ما يبدو من أجل تجنب الوابل الإيديولوجي الذي تتبأوا بأنه سيعترضهم، قال المؤلفون إنهم يركزون على وظيفة الأم بدلاً من وظيفة الأب لأسباب ثلاثة: "إن كمية عمل الأم هي التي تغيّرت درامياً في العقود الأخيرة؛ سواء أكن يعملن خارج المنزل أم لا، لا تزال النساء "يحملن عبء مسؤولية تربية الأطفال"؛ و"حدود المعطيات في التحليل... لا يمكننا إلا من ربط تواريخ عمل الأم والأطفال".

هل تزيد الأمهات العاملات خارج المنزل من خطر أن يسمن أولادهن؟ الجواب هو نعم بحسب المؤلفين. وفي صيغتها الأسرة

هذه الدراسة هي "من بين أول الدراسات التي تعالج مسائل العلية"، و"تقدم دليلاً قوياً على تأثير إيجابي ومهم لعمل الأم في احتمال زيادة وزن الطفل". وبينما ليست النسب المثوية المستمدة ساحقة، يُظهر المؤلفون في نقطة واحدة كيف يمكن أن "يشرح" عمل الأم المتزايد من 6 إلى 11٪ من الوزن الزائد للأطفال: ليس هناك استخفاف بأن هذه الدراسة كشفت صلة مهمة. كما شدد المؤلفون، أظهر عملهم لا علاقة متبادلة فحسب وإنما صلة عليّة واضحة: "فالألية التي من خلالها تحدث زيادة الوزن لدى الطفل هي قيود لوقت الأم؛ إنها ساعات كل أسبوع، وليس عدد الأسابيع التي عمّل فيها، هي التي تؤثر باحتمال زيادة الوزن لدى الأطفال". ولا يمتنع المؤلفون عن التحدث عن انعطاف طبقي غير متوقع هنا: "ربما كان هذا التأثير واضحاً بخاصة لأطفال الأمهات البيض، الأمهات ذوات التعليم الأعلى، وأمهات الدخل المرتفع". بتعبير آخر، إن الأطفال الذين لأمهاتهم وظائف أفضل، والذين هم منتفعون بالمقارنة مع أندادهم، هم بالفعل غير منتفعين في قسم سمنة الأطفال.

فهذه الدراسة التي قام بها أندرسون وبتشر وليفاين حول وظيفة الأمهات فريدة، ولكنهم نوّها أن جهوداً أخرى لتقييم الصلة قد بُذلت. وبخاصة، لخصت دراسة تمت في 1999 عن الأطفال اليابانيين السمان الذين في سن الثالثة سلسلة سببية مشابهة،

محددة "وظيفة الأم" كعامل بيئي يسهم أكثر من غيره في بدانة الطفل.⁽¹³⁾ واضعين الدراسة جانباً . ويبدو أنها معروفة قليلاً في الولايات المتحدة خارج الدوائر المختصة . لم يُخصص كثير من الانتباه لمسألة غياب الأم، والتي هي بالكاد مفاجئة . فشد الانتباه إلى الصلة بين بدانة الطفولة وغياب الوالدين، وخاصة غياب الأمهات، هو قريب لمهمة غير مشكورة بقدر ما يستطيع علم الاجتماع أن يحصل ويمكن أيضاً أن تكون انتحارية على الصعيد المهني . مع ذلك بينما يمكن أن يكون "الأطفال ذوو الوزن الزائد والأمهات الغائبات" بين المحاولات الأولى لفحص الصلة مباشرة، فإن هذا ليس الدليل الوحيد على صلة بين الأمهات الغائبات والأطفال البدناء . فهناك على الأقل أربع طرق أخرى لتأسيس تلك الصلة نفسها، وكل منها تشير إلى صلة عليّة أقوى .

الجلوس، المراقبة، وتناول الطعام

كي نأخذ مثالنا الأول، لا شيء راسخ بشكل قوي في أدبيات السمعة كحقيقة الصلة بين مشاهدة التلفاز والأطفال البدناء . فهذه الظاهرة، التي دُرست مرات كثيرة، فُهمت بشكل جيد جداً: كلما شاهد الطفل التلفاز أكثر صار من المحتمل أن يصبح أكثر سمنة . أما بالنسبة للآلية العاملة هنا فهي واضحة . الناس عادة يأكلون أكثر حين يجلسون أمام التلفاز مما لو كانوا يجلسون إلى الطاولة،

وإذا لم يكن لديهم أحد يتحدثون معه، فهم يأكلون أيضاً بسرعة أكبر. فضلاً عن ذلك، لأن الاستقلاب يتباطأ تقريباً إلى مستويات كالنوم بعد وقت كاف أمام الشاشة، فإن الطعام الممتص يتم تحويله استقلابياً بشكل أكثر بطئاً . بطريقة أكثر صداقة للسمنة . مما سيكون عليه الأمر بخلاف ذلك .

إن مدة مشاهدة التلفاز هي معيار ممتاز لبدانة الطفل والبالغ . هل من المرجح أن الأطفال في المنزل الذي يغيب فيه الوالدان يشاهدون التلفاز أو يمارسون ألعاب الفيديو أكثر؟ الحس العام يجيب بنعم . مع ذلك، وبنحو مدهش . أو ربما لا ، مفترضين الطبيعة المشحونة اجتماعياً للتقصي . كان هناك القليل من البحث المباشر حول المسألة المحددة المتعلقة بأن كان الأطفال الذين أمهاتهم في الخارج حين يأتون إلى المنزل يشاهدون المزيد من التلفاز أو يلعبون المزيد من ألعاب الفيديو أكثر من أولئك الذين بوالدين في المبنى .

توحي مقالات مخادعة من البحث الآخر أن الجواب هنا، أيضاً، هو "نعم" لا لبس فيها . بينما القليل يمكن أن يكون قد كُتب عن عادات المشاهدة لدى الأطفال الأميركيين من الطبقة الوسطى والوسطى العالية (الذين بعض أولياء أمورهم العاملين يمكن أن يقوموا برد إيديولوجي على هذا النوع من التقصي)، وقد ذهب بعض الفكر الخبير إلى مسألة ما يمكن أن يتم توقعه حين يكون الوالدان من الطبقة الأدنى غائبين عن المنزل . الدليل يأتي من مصدر غير متوقع: إصلاح الرفاه .

يمكن أن يظن المرء أن المتبطل^(*) هو متبطل هو متبطل. بتعبير آخر، مفترضين قوة الصلة بين الدخل المنخفض ومشاهدة التلفزيون، يمكن أن يظهر أن مشاهدة التلفزيون هي نوع من مناعة مستمرة ضد نشاط آخر قائم، وخاصة فيما إذا كانت الأم تعمل أو كانت في المنزل. ولكن تبين أن وجهة النظر هذه خاطئة، أو هكذا تقترح دراسة رئيسة استغرقت أربع سنوات بعد إصلاح الخدمات الاجتماعية في كاليفورنيا، نشرت نتائجها جريدة سان فرانسيسكو كرونيكل كالتالي: إن "التأثير الأكبر لإصلاح الخدمات الاجتماعية على الأطفال هو أنهم يمضون وقتاً أقل مع أمهاتهم ويشاهدون التلفزيون 22 دقيقة إضافية يومياً في المعدل المتوسط".⁽¹⁴⁾ ما يجعل مصداقية هذا الدليل أكبر هو أن الباحثين من ستانفورد، جامعة كاليفورنيا في بيركلي، كولمبيا، وييل لم يكونوا يبحثون عن نتيجة كهذه ولكنهم اكتشفوها بالمصادفة في مجرى مسحهم لسبعمئة امرأة. هذا الازدياد يدحض أية فكرة بأن مشاهدة التلفاز هي ثابت مستند إلى الطبقة لا تؤثر فيه متغيرات محلية أخرى.⁽¹⁵⁾

إلى كم نحتاج من العلم الاجتماعي كي نخبرنا أنه حين يغيب الوالدان، سيلعب الأطفال؟ وسيلعبون بخاصة بالألعاب الإلكترونية. مرة أخرى، من سيفاجأ؟ بالطبع من المحتمل أن يطفئ الأطفال الشاشة أو لعبة الفيديو إذا كان هناك بالغ حولهم يذكرهم أن

(*) وخاصة من يمضي وقتاً طويلاً في مشاهدة التلفزيون.

يفعلوا ذلك، كما سيأكلون قطعتين من البسكويت بدلاً من اثنتي عشرة إن كان حولهم أي شخص يمتلك رأياً عما يأكلونه ويطبقة.

كلما قل حليب الأم، ازدادت السمنة

تتعلق الطريقة الثانية، المختلفة التي يكون فيها للوالدين الغائبين - أي في هذه الحالة الأمهات الغائبات - علاقة بسمنة الأطفال، بممارسة تخفّض من خطر سمنة الطفل ولكنها تتناقض مع السوق الدافعة للأجر. هذه الطريقة الثانية هي الرضاعة. لا يتوجب على المرء أن يكون عضواً في عصابة الحليب كي يفهم لماذا يحثُّ الأطباء في كل مكان الأطفال على شرب حليب الأم متى كان هذا ممكناً؛ بالفعل، تزكي الأكاديمية الأميركية لطب الأطفال الآن رسمياً الرضاعة من الثديين في السنة الأولى من الحياة على الأقل. وقد تطورت مجموعة من الأدلة مع مرور الأعوام تقول إن حليب الأم في السنة الأولى من الحياة لا يقدم المناعة وحمايات أخرى لعدد متنوع من مشكلات الأطفال فحسب، وإنما أيضاً يخفّض احتمال البدانة فيما بعد.

وقد طُرح هذا في مقال في مجلة لانسيت في حزيران 2001 استند إلى دراسة لـ 32.200 طفل اسكتلندي.⁽¹⁶⁾ كان استنتاج الباحثين هو أن "الرضاعة من الثديين مرتبطة بانخفاض معقول في مجازفة سمنة الطفل". أما بالنسبة لكيف يخفض الحليب البشري

من السمنة، فإن الجواب بسيط: إن وحداته الحرارية أقل من الصناعي، وعلى الأطفال أن يبذلوا جهداً أكبر كي يستخلصوه. وهذا يعني أن كمية حليب الأم المتأولة في عشر دقائق هي أقل في الحجم وحداتها الحرارية أقل من الحليب الصناعي. الحليب الصناعي، على العكس، يضع الوحدات الحرارية في الطفل بسرعة أكبر وبالتالي يعرضه لخطر الإفراط في التغذية. وبتعبير بسيط، ليس هناك عملياً شيء يُدعى طفلاً سميناً تغذى على الثدي. وهذا شيء لا يُقال عن الأطفال الذين يُغذون بالحليب الصناعي.

هنا مرة أخرى مثال حول كيف أن غياب الأم - هذه المرة أثناء السنة الأولى من العمر - يثير خطر تعرض الطفل والمراهق للسمنة. وكما يتفق الأطباء والأمهات صاحبات التجارب، إن الرضاعة من الثديين تعمل بنحو أفضل حين يكون الطفل والأم في قرب مستمر من بعضهما البعض. فالطفل النموذجي الذي يتغذى على الصدر يأكل من كل ساعتين إلى أربع، غالباً طول الوقت وأحياناً لشهور. فلا شيء يمكن أن يكون أكثر ضرراً من الوظيفة خارج المنزل لوقت كامل. صحيح أن بعض النساء العاملات يضحين بشكل دائم الحليب أثناء العمل، بهذا يحاولن تعديل دائرة تغذية الطبيعة. إلا إذا كن قادرات على فعل ذلك بسرعة تشبه سرعة الطبيعة - وستلاحظ معظم المكاتب بالتأكيد غياب عشرين دقيقة ثلاث، أربع أو خمس مرات في اليوم - لن يكن قادرات على تقديم حماية مثل التي تستطيع تقديمها الأم الأكثر توفراً في المنزل. فضلاً عن ذلك

(ويبدو أن اللواتي يمدحن الممارسة من ذوات الذهن النسوي غير واعيات لهذا)، فالتوتر الجسدي لتنظيم كهذا، بمقتضيات سائله ووحداته الحرارية المضافة والتغيرات الهرمونية التي يسببها (الإلبان^(*)) يطلق الأوكسيتوسين، الذي يسبب النعاس) يمكن أن تكون هائلة.

مهما كنَّ جديرات بالثناء بسبب التضحية بأنفسهن بهذه الطريقة، من الصعب الاعتقاد أن معظم الأمهات لا يجدن أنه من الأسهل أن يتخلصن من منديل التغذية من الشديدين عاجلاً وليس آجلاً. هكذا هو الجهد والضييق الناجم عن إقحام ممارسة مصممة من الطبيعة كوظيفة تقتضي وقتاً كاملاً في أوقات معينة. بهذه الطريقة، أيضاً، وبإهمال، تسهم الأمهات الغائبات كثيراً في العام الأول من الحياة في خطر بدانة الطفل وسمنته.

لا تخرج إلى اللعب

تشتمل الطريقة الثالثة التي يسهم بها الآباء والأمهات الغائبون في مشكلة سمنة الطفل على الحل الذي يفضله جميع الخبراء للمسألة كلها: التمارين الرياضية. بعامّة، فالأطفال الذين يُتركون دون رعاية بعد المدرسة يقعون في فئتين: أولئك الذين في مؤسسات رعاية بعد الدوام وأولئك الذين يعتنون بأنفسهم، أي

(*) تكون اللبن في الضرع أو خروجه منه، فترة الدر.

أطفال المفتاح المزلاجي. هل تجعل الرعاية غير المرتبطة بالوالدين، أثناء تلك الساعات، التمرين محتملاً أكثر أثناء تلك الساعات أو أقل؟ الجواب هو أقل.

بينما يمكن أن يحظى أطفال العائلات الغنية بمربيات تتقلهم إلى الرياضة والتمارين والملاعب أثناء تلك الساعات، يسهل ما يُمكن أن يُدعى "عقوبة التمرين" للوالدين الغائبين، فإن معظم الأطفال لا يستطيعون بنحو مشابه أن يمتلكوا بديلاً للأبوين للتأكد من أنهم هم يحصلون على وقت الرفقة الضروري. بالنسبة لكثيرين، إن برامج الرعاية قبل وبعد المدرسة هي نادراً مجانية، والتي فيها يفعل الأطفال المتعبون والنزقون ما يسرهم داخل حدود المدرسة أو أراض أخرى. يصح هذا بالتأكيد على الكثيرين الذين رأيتهم في حارتنا التي تغص بالمدارس، وهي تمثل أطفال جميع الطبقات في برامج أخرى. سيلعب بعض الأطفال لعبة التقاط الكرة (بيك آب بول)؛ وأولئك الذين يناون بأنفسهم عن أمور كهذه من المرجح أن يُجبروا على القيام بها. بالإضافة إلى ذلك هناك المشكلة ذات الصلة التي يجب أن يُشدد عليها في أي نقاش لسمنة الأطفال: البالغون - غير الوالدين - المشرفون والذين يتولون مسؤولية إدارة فيالق من الأطفال لتناول وجبات خفيفة متعاقبة أثناء اليوم المدرسي، وهذه مسألة منفصلة عن المسائل التجارية لآلات البيع والطعام السريع وما تبقى.

لا يستطيع المرء لوم مانحي الرعاية على الفشل في وضع الممارسة أولاً أو من أجل مفاقمة المشكلة من خلال المزيد من الإفراط في تغذية الأطفال. مرة أخرى يتجلى الصراع بين رعاية الوالدين ورعاية غير الوالدين. وبينما يبدي الوالدان اهتماماً طويلاً الأمد بالصحة الجسدية، فإن مشرفين آخرين بالغين يستجيبون بدلاً من ذلك إلى مشكلة قصيرة الأمد، وأعني الاضطرار لإدارة أعداد كبيرة من الأطفال المتعبين والنزقين وصعبي المراس إلى أن يأتي أولياء أمورهم لتولي الأمر. فالطعام الزائد السيئ لمصلحتهم طويلة الأمد هو مع ذلك جيد من وجهة نظر مشكلة الإدارة قصيرة الأمد، على الأقل لأولئك الذين يتولون مسألة الإدارة.

ماذا عن الأطفال الذين ليسوا في البرامج على الإطلاق، أولئك الذين يعتقدون بأنفسهم بعد المدرسة (التعبير المخفف الحالي عن أطفال المفتاح المزلاجي)؟ بالنسبة لمعظمهم التمرين هو بشكل كامل في الخارج. والسبب واضح: من المفترض أن يذهبوا إلى المنزل ويبقوا فيه. "إذا كنت والدًا لطفل مفتاح مزلاجي"، كما تعبر بارينتج دوت أوج Parenting.org عن النصيحة النموذجية، "تحتاج إلى أن تعلمه مهارات رعاية ذاتية، وتضع قواعد وحدوداً، وتحدث عن معلومات أمان أساسية". وبين النصائح، بحسب قائمة المجلس القومي للوقاية من الجرائم النموذجية: "قم بالمراقبة؟ (أي، الوالدين) أو جار بعد وصولك إلى المنزل فوراً". "شغل أفعال الأبواب والنوافذ". "رد على جرس الباب أو الهاتف بأمان". "تجنب

السير أو اللعب وحيداً". كل هذه مبنية على افتراض أنهم ذاهبون إلى المنزل كي يبقوا فيه.

وكما ينبغي أن يكون الأمر: إذا كان على الطفل أن يعود إلى منزل فارغ، من الأفضل أن يُفضل عليه في الداخل بدلاً من أن يخضع للإشراف في العالم الخارجي. مرة أخرى، إن القلق الأهم والقصير الأمد للوالدين الغائبين - الأمان والأمن الجسدي - ضار لفوائد طويلة الأمد للتمرين خارج المنزل، والذي يقتضي غالباً وجود بالغ في الجوار، على الأقل في كثير من الخلفيات المدنية وغير المدنية.

هنا ثانية، الأطفال والمراهقون خاسرون بشكل لا يقبل النقاش على الأقل في هذا المجال من الحياة بالمقارنة مع ما تمتع به آباؤهم في فترة الشباب. فكثير من آباء اليوم ينظرون بولع إلى تلك الساعات التي بعد المدرسة على أنها وقت الفراغ الأكبر في اليوم وهي مليئة باللعب بالكرة، الوثب في الساحة، القفز على الحبل، وألعاب أخرى مسلية خارج المنزل. ويعبر كثير من عن حنين إلى حقيقة أن أطفالهم لن يعرفوا أبداً عالماً كهذا، ويتساءل البعض أيضاً لماذا. والجواب واضح وضوح النهار: ما جعل ساعات اللعب تلك ممكنة كان الشيء الوحيد الذي لم يعد بوسع كثير من الأطفال والمراهقين التحكم به: والد، وخاصة أم في المنزل في نهاية يوم المدرسة. كان حضور البالغ هو الذي جعل "الأمان" والتمرين "خارج المنزل" مصطلحين متساوقين لأطفال البارحة، وليس متناقضين

كما هما الآن. فضلاً عن ذلك، لم يجعل ذلك الحضور أبناءهم أكثر أماناً فحسب، وإنما أبناء أطفال آخرين كذلك.

يدعم البحث هذه الفكرة القائمة على الحس العام. وكما قال مراقبون من جين جاكوبز إلى الأمثلة المعاصرة لروبرت دي. بنتام وألن إهرنهلت لفترة طويلة، هناك صلة قوية بين البالغين الغائبين وغياب الأمان في الشوارع. وكتب إهرنهلت عن حارة جنوب غربية في شيكاغو في كتاب المدينة المفقودة بأن ما تفتقر إليه هي وحاتر أخرى مثلها هو بالضبط ما جعل أمكنة كهذه جماعات حقيقية: "الاختلاط الاجتماعي عند مدخل المبنى في أمسيات الصيف، الألفة في الزقاق الخلفي كميدان للرياضة، شبكة أمهات في المنازل يقدمن لوحة بلاغات فورية عن الحارة سبعة أيام في الأسبوع".⁽¹⁷⁾ بالمقارنة، "في أيام الأسبوع الآن، وفي فترات طويلة من الوقت، يسير المرء في الشوارع الهادئة الملائمة للسكن. هذا جزئياً لأن الكبار في السن يقلقون من الجريمة ويخافون الشوارع تقريباً بقدر ما أخذوا غذاء منها في الأيام القديمة". ويعلق متحدثاً، بنحو مشابه، عن تطور ضاحية تُدعى إلمهرست تبعد عشرة أميال: "يوجد الإحساس نفسه بالاستمرارية الجسدية والجيشان الاجتماعي... إذا كانت الشوارع جميلة، فهي أيضاً فارغة طوال الوقت. فإميري مانور، مثلها مثل تقريباً جميع الأقسام المدنية في أميركا، هي الآن حارة من أسر تعيش على وظيفتين، ولهذا لا ترى أمهات مع أطفال سائرين في طريقهم إلى المنزل من وإلى الحديقة

كما كنت ستراهن في الخمسينيات. ولا، من أجل تلك المسألة، ترى كثيراً من الأطفال الأكبر سناً يلعبون في الأصائل لوحدهم". ويختتم: "العواقب الاجتماعية للأسرة التي تعتمد على وظيفتين، تمتد إلى ما وراء الشوارع الفارغة في النهار بكثير".

باختصار، قلل نزوح البالغين من المنزل أثناء وقت طويل من اليوم من "الأعين المراقبة للشارع"، والذي هو اختزال لما يجعل الحارات جيدة بدلاً من سيئة، وأكثر أمناً بدلاً من غير آمنة. فهذا النقص يشجع على الجريمة (كما أخبرني شرطي في واشنطن، العاصمة، فالافتحانات في الأحياء الغنية عادة تحدث بين الحادية عشرة والواحدة ظهراً حين، بحسب التقدير الإجرامي يقل تواجد الناس في بيوتهم). ولكنه أيضاً أسهم في دورة شريرة والتي هناك دوماً أطفال بدناء في دوامتها: كلما ازداد غياب الوالدين من المنزل ازداد تردهم في جعل أطفالهم يلعبون في الخارج، لأنه بوجود كثير من البالغين خارج المنزل أيضاً، لا يوجد شبكة إبلاغ من البالغين ذوي الذهنية نفسها كي يكونوا متنبهين لهم. وكلما قل عدد الأطفال الذين يُسمح لهم بالخروج إلى اللعب قلَّ احتمال السماح بخروج أطفال آخرين. هكذا، في وقت يتم فيه اختصار الرياضة والوقت خارج المنزل في كثير من المدارس، فإن هاتين الحقيقتين الأخيرتين اللتين تزيدان من تقييد حركاتهم بعد المدرسة تقرران مصائر كثير من أطفال بدناء مستقبليين.

أخيراً، صورة واحدة مستمرة لأحيائنا الغنية هي صورة طفل، أو ربما اثنين، يقيمان داخل المنزل أمام شاشة أو أخرى مع هاتف خلوي أو أرضي، بينما نظام الإنذار المضاد للسرقة شغال، وليس هناك بالغ مرئي قبل وقت العشاء. ولطرح سؤال أكثر ضخامة أثير في مكان آخر في هذا الكتاب: هل هذا فعلاً تحسین عاطفي أو اجتماعي لما فعله معظم البالغين الذين في سن آبائهم مع الساعات هذه نفسها؟ على الأقل هذا الكثير عن لقطتنا الخاطفة لا يقبل الجدل: إنه لا يجعل الأطفال الأميركيين أكثر نحفاً.

علاجات: النصيب في الخطئية

تشيرُ طريقة واحدة أخيرة يرتبط فيها الوالدان الغائبان بمشكلات سمنة الطفل إلى ظاهرة لم أر أنها موصوفة أبداً في العلم الاجتماعي، رغم أن جميع الأمهات والآباء يعرفونها بنحو حميم. فجميعنا يستطيعون تكرار الوصية التي أدخلتها إلينا أجيال من أطباء الأطفال وكتب الرعاية بالأطفال: لا ترش الطفل بالطعام أبداً. ولكننا جميعاً نحنث بتلك الوصية أحياناً، حتى بشكل مزمن. الحقيقة البسيطة هي أنه حين يتعلّق الأمر بالرشاوى، لا شيء آخر يعمل كالطعام، كما أعرف جيداً، كوني منتهكة مئات المرات لهذا، إن لم يكن آلاف المرات، في مناسبات تتضمن كل شيء من الحلوى المتدلية من العود إلى وضع طفل يبكي في مقعد السيارة إلى وضع مؤونة نهاية الأسبوع من الغذاء التافه قبل مغادرة البلدة لزيارة والدين مريضين.

إن المونولوج غير المدوّن لهذه الصفقات هو أيضاً واحد يعرفه الوالدان عن ظهر قلب. لن تكون الماما موجودة على العشاء، ولذلك لماذا لا تقدمون لأنفسكم بيتزا وكعك القرفة الذي تحبونه. أو: كاثي، جليسة الأطفال قادمة الليلة وسنتأكد من أنها تعد الكعك لك. و: آسفة أنني لم أذهب إلى لعبتك أو لعبك أو اجتماعك هذا الصباح. ما رأيك بالبوظة كي نحتفي؟ وكما توحى هذه الأمثلة، إن الآباء والأمهات، أو على الأقل الميئون منهم يستخدمون رشاوى الطعام بشكل روتيني، وبخاصة كي يخففوا على الأطفال صدمة كونهم منفصلين. ونفعل ذلك دون التفكير بالأمر. باختصار، إن مشاعر الوالدين بالذنب هي نفسها مصدر مستقل للإفراط في التغذية. وإذا ضاعفنا تلك الظاهرة بالغياب الضخم للوالدين اليوم بسبب العمل والطلاق وما تبقى، عندئذ نستطيع في الحقيقة أن نرى كيف تتجمع الوحدات الحرارية.

في النهاية، إن الحقيقة الجوهرية عن آلات البيع والمدخل إلى الطعام السريع هي هذا: أحد ما يقدم النقود للأطفال من أجل كل تلك الأمور. وعدد كبير من الأشخاص منخرط في حوارات أخرى غير مدوّنة كمثال هذه كل يوم: أمك لا يمكن أن تكون هناك حين تعود إلى المنزل من المدرسة، ولكن كعكاتك المحلاة هي على الرف. أو: لا أريدك أن تذهب إلى الحديقة بعد المدرسة حين أغيب، ولكن إليك بيضعة دولارات بوسعك أن تنفقها في مطعم مكدونالد في طريق عودتك إلى البيت. و: أعرف أنك لا تحب الوجبات الخفيفة

في الرعاية التلويية، ولهذا وضعتُ شيئاً خاصاً في علبة غدائك اليوم. وكثير من النساء في الوصاية المشتركة يعرفن هذه الجملة عن ظهر قلب: حين كانوا معه (أي مع الزوج) الأسبوع الماضي، لم يأكل الأطفال شيئاً سوى الهوت دوغ والمكدونالدز وبوظة الشوكولاتة وكل الحلوى التي يستطيع أن يقدمها لهم.

هذه هي الموضوعات السريّة، التي يكررها الملايين، والتي يتردد صداها عبر المطابخ الفارغة للبالغين في أميركا. وهي تصيح قوة قابلة للقياس وحقيقية جداً خلف مشكلة السمنة: إن الوجبات الإضافية هي نوع من "حصّة الخطيئة" التي يستخدمها الوالدان الغائبان كي يهدئا الطفل المنفصل عنهما. فضلاً عن ذلك، تزداد هذه الحصّة حتى حين يكون الوالدان في المنزل، ذلك أنه من غير المرجح كثيراً أن يجلسا إلى المائدة لتناول الطعام. فهذا الانخفاض في عدد الوجبات التي تتناولها الأسر سوية، والتي لوحظت وشُجبت في أدبيات الخبراء والأدبيات الشعبية، هو برهان آخر على العلاقة بين سمنة الطفل وإشراف البالغ أو غيابه بالتالي. إحصائياً، الناس يأكلون أقل وببطء أكبر حين يجلسون إلى مائدة ويتحدثون سوية على عكس ما يكون عليه الأمر حين يحشون أفواههم أمام شاشة.

حتى هكذا، بالنسبة لعدد كبير من الناس تم استبدال وقت الوجبة بشكل متزايد بـ "تناول الطعام بشكل سريع". لقد أخذت

تلك العبارة من نقاش صريح بشكل غير مألوف في واشنطن بوست مؤخراً دعي "عشاء العائلة، بدون العائلة"، والذي يتحدث عن أم يضغط عليها ولدها الوحيد كي يأكلوا كعائلة تشرح كيف أنهم صاروا يأكلون وجبات منفصلة في أماكن منفصلة أمام شاشات مختلفة: "كمثل كثيرين من أبناء الأمة، كل فرد في الأسرة مشغول بحيث أصبحنا منذ فترة طويلة معتادين على الأكل في نوبات... وهي غالباً مسألة تباعدية، حيث الناس يتجولون ببرامج عملهم الخاصة، يحدقون في البراد وكأنه مطعم آلي من الخمسينيات، ويقومون بالاختيار".⁽¹⁸⁾ باختصار، "العشاء في منزلنا أصبح وقتاً لاستهلاك الطعام، وليس وقتاً مخصصاً للمحادثة".

أتينا إلى اللقطة الخاطفة الأخيرة لمشكلة سمنة الطفل، والتي تشير إلى أنه في منحي آخر ليس أطفال اليوم أفضل مما كان عليه آباؤهم وأمهماتهم. فطريقة تناول الطعام الموصوفة في مقال البوست - رعي بشري تسلسلي مناقض لساعة العشاء - هي في الحقيقة مضمون لجعل الجميع أكثر سمنة، عدا أولئك الذين لهم نظام داخلي جدي. ولكنها بالتأكيد أقل متعة لكثير من الصغار من بضع دقائق فعلية مع الوالدين، كما يوحي بشكل قوي مقال البوست، والذي يبدأ بالمراهق الذي يطلب هذا فحسب ولا يحصل عليه.

الوالدان الغائبان، الأطفال النهمون

في النهاية، إن فكرة أن الرعاية البعيدة عن الوالدين تلعب دوراً في مشكلة سمنة الطفل ليست قابلة للدفاع فقط، مفترضين الدليل، وإنما أيضاً واضحة للأسباب العديدة التي شُرحَتْ. هذا لا يعني أن هذا الوضوح يجعل الأنباء مطلوبة بعد الآن. كانت استجابة أحد المعلّقين على دراسة أندرسون وبتشر وليفين هي الهجوم العنيف عليها بسبب الشعور بالخطيئة الذي يمكن أن تولده في الأمهات العاملات. "والخطيئة" هي بنحو مشابه مصطلح الازدراء الذي يُقذف على أي شخص يقوم بهذا الربط الواضح. فضلاً عن ذلك، ليس إيديولوجيا الفصل فحسب وإنما أيضاً الحياة الواقعية أيضاً، تمتلك الكثير كي تفعله بمقاومة كهذه. في وقت تعمل فيه كثير من الأمهات لأنهن لا يستطعن أن يقمن بالأمر بطريقة أخرى ويفيب كثيرون عن المنزل لأسباب في غاية الأهمية بالنسبة لهم. كل شيء من الفواتير التي يجب أن تُدفع إلى التحقق الشخصي إلى البضائع الزائدة التي تستطيع النقود شراءها، وبينها البضائع الموجهة إلى الأطفال مثل التعليم والسفر. فإن الأنباء بأن الأمهات الغائبات يمكن أن يسهمن في تسمين أطفالهن ستظل حاضرة.

تفوق عواقب الحياة الواقعية الصحية بالنسبة لكثير من الأطفال أخلاقياً مشاعر البالغين تلك، وينبغي أن تفعل. فأولئك

الأطفال - الذين هم ثانيةً، بهذا المعنى، أسوأ مما كان عليه آبائهم وأمهاتهم - يستحقون شيئاً ما من الموافقة الشريفة على الدليل. وما يقترحه الدليل بقوة هو هذا: إن مشكلة سمنة الطفل اليوم هي بنحو كبير ناتجة عن عدم وجود البالغين هناك للإشراف على ما يأكله الأطفال. ويقول الحس العام إن هذين الاتجاهين مترابطان: الأطفال يأكلون أكثر لأنه قل احتمال وجودهم إلى جانب شخص يقول لهم إنها فكرة سيئة. فمن الذي سيصبح سميناً: ذلك الطفل الذي يأتي إلى المنزل إلى أم تخبره أن ينتظر إلى العشاء، أم الطفل الذي في برنامج بعد المدرسة أو في منزل فارغ، والذي يمتلك مدخلاً لعدة ساعات إلى صينيات الوجبات الخفيفة، والطعام السريع، وبراد مليء؟

الإشارة بالإصبع إلى غياب الوالدين كمصدر لمشكلة سمنة الطفل لها حسنة إضافية: تضيء على الأقل بعض المظاهر المهمة للظاهرة التي فلتت حتى الآن من الشرح. أحد المظاهر هو حقيقة أنه، كما دُكر سابقاً، وبنحو مضاد للاعتقادات الشعبية الخاطئة، سمنة وبدانة الطفل تزدادان في جميع البلدان المتطورة حيث الأمهات هن أيضاً، بنحو نموذجي، خارج المنزل بغض النظر عن الاختلاف في الحمية، الثقافة، وإلى ما هنالك. مظهر آخر هو حقيقة أن هذا الرابط سيساعد أيضاً على شرح لماذا العائلات المهاجرة - التي فيها غالباً ما تعمل الأمهات أيضاً خارج المنزل - هي عرضة بخاصة لمجازفة أن تصبح زائدة الوزن.

يمكن أن يعتقد بعض القراء حتى الآن أن المزيد ينبغي أن يُقال عن الآباء في كل هذا، وأن الأمهات اللواتي هن مشغولات إلى حد الإعياء تم إفرادهن دون عدل. حول هذا الموضوع، لسوء الحظ، وعلى عكس كثيرين في هذا الكتاب، ليس الأمهات والآباء وحدات قابلة للتبادل الداخلي. فالأم، أكثر من أي بالغ آخر في حياة الطفل، هي التي تجرب الحاجة إلى ضبط ما يأكله أولادها وأن تلاطفهم وتأمهم كي يأكلوا كما تعتقد أنهم يجب أن يفعلوا. إنها الأم، وليس الآخرين، هي التي تملك عادة الآراء الأقوى حول أمور كهذه، سواء كانت في المنزل مع أولادها أم لا. فضلاً عن ذلك، حتى المساعدة المدفوع لها بنحو أفضل من غير المحتمل أن تكون متببهة لما يأكله الأطفال كما ستفعل الأم. فصحة الطفل على المدى الطويل ليست الاهتمام الرئيسي لمناخ الرعاية (عادة هي الهدف قصير الأمد في حفظ الطفل تحت الإشراف وسعيداً). ولأسباب تبقى غامضة كما هي واضحة حدسياً، إنها الأم بنحو نموذجي، أكثر من أي شخص آخر في حياة الطفل، هي التي ترغب بأن تجازف بعدم الرضا عن الشره قصير الأمد للطفل من أجل الفوائد طويلة الأمد لحمية أفضل.

سواء كانت مطلوبة أم لا، إن الصلة بين الأطفال البدناء والمنزل الخالي من الوالدين تقف كعلامة بوجه جانوس^(*): يظهر الجانب

(*) جانوس هو إله الأبواب والبدايات الزمنية عند الرومان. يُزعم أنه كان يحرس أبواب رومة وأقواسها وصُوّر في الأعمال الفنية بهيئة رجل ذي وجهين كل منهما ينظر في ناحية.

الشمسي أرض عجائبنا المادية التي فيها الجميع أحرار كي يتركوا المنزل من أجل السوق المدفوعة القيمة، ويظهر الجانب المظلم ما الذي يتركه النزوح الاجتماعي خلفه. يمكن أن يتكشّف أن الصلة هي حتى أكثر عمقاً مما نعرفه. ربما ما يفعله بعض أطفال البلدان الأفضل مع أفواههم ومعدهم يردم فجوات تُصنع في مكان آخر في حياتهم. وربما كان وقت الفراغ الذي ملئٌ بالإفراط في تناول الطعام، هذا إذا استخدمنا المصطلحات الخادعة "لمراكز مكافحة الشره" ومنظري حميات آخرين، هو أكثر ارتباطاً بالشبان من غيرهم. ربما ربما سيجعلهم أقل شرهاً المزيد من الصلة والرفقة مع والدين حقيقيين وليس افتراضيين، ومع أعضاء آخرين.⁽¹⁹⁾

للحياة المحلية تجاربها وصدماتها، دون شك، بالنسبة للأطفال والبالغين على حد سواء، ولكن لها أيضاً متعتها وعزائتها. فالطفل الغربي غير قادر على الاستمتاع بأنواع الراحة التقليدية في أي شيء مثل جرعات اعتادت عليها البشرية، ربما يستخدم الطعام كي يحاول أن يعوّض عن أمور أخرى مفقودة. ربما ليس هناك من صلة بين عوالم المنزل والعمل. ربما لهذا السبب على الأقل جزئياً تصبح الوحدات الحرارية عزاء.